الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

هل يتصالح "الإخوان المسلمون" ويتحالفون مع الغرب؟

شاكر النابلسي
كاتب اردني / امريكا

لا أحد ينكر أن جماعة الإخوان المسلمين الآن في مصر وخارج مصر ومن خرج من عباءتها من الأحزاب الدينية / السياسية الأخرى كحركة "حماس" في غزة ، وحزب "العدالة والتنمية" في المغرب ، تعتبر من أكبر الأحزاب العربية على الساحة السياسية ، بعد أن تهاوى حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق ، وفقد الكثير من قواعده وصدقيته في أنحاء متفرقة من العالم العربي ، نتيجة للممارسات التي يقوم بها في سوريا ضد المعارضة ، وما يحدثه من فوضى مدمرة في لبنان وفلسطين والعراق.

فلو فتّش الغرب الآن عن حزب سياسي قوي له تاريخه الطويل منذ نشأته عام ١٩٢٨، في الإسماعيلية المصرية، يتحدث معه، ويحاوره، ويركن إليه، فلن يجد غير جماعة الإخوان المسلمين، ليس لأنهم هم الحزب المؤهّل للتفاهم والمصالحة مع الغرب، ولكن لأنه لا حزب سياسياً غيرهم في العالم العربي يفوقهم تنظيماً وعدداً (لهم فروع ومكاتب في أكثر من ٧٠ بلداً في العالم) وتأثيراً ومالاً في الشارع العربي، وخاصة الشارع المصري، بعد أن كسبوا ٨٨ مقعداً في الانتخابات التشريعية المصرية الأخيرة، وأصبحوا أقوى قوة سياسية في مجلس الشعب المصري، بعد الحزب الوطني الحاكم.

الإخوان المسلمون بين الخطاب والتطبيق

تخشى الأحزاب العلمانية العربية - على قلتها وضعفها وتهافتها-وكذلك الغرب من خطاب الإخوان المسلمين السياسي والديني فيما يتعلق بحرية المرأة ،وإقامة الخلافة الإسلامية، ومعاملة غير المسلمين (أهل الذمة) كمواطنين من الدرجة الثانية. وهذه النقاط الثلاث في خطاب الإخوان المسلمين هي التي تُخيف العلمانيين العرب كما تخيف الغرب عموماً وأمريكا على وجه الخصوص من تولي الإخوان المسلمين زمام الحكم في أي بلد عربي، وخاصة في مصر.

لكن الواقع والتطبيق مختلف عن هذا.

لقد فازت "حماس" في الانتخابات التشريعية في فلسطين بداية عام ٢٠٠٦، وتولت الحكم لمدة تزيد على عام وكان لها خطابها السياسي/ الديني، فماذا فعلت؟

وماذا حقق الشعب الفلسطيني من هذا الحكم؟

وهل تحقق "حماس" قيام دولة دينية فلسطينية؟

لقد وقف العرب في التطبيق ضد آمال "حماس" وغاياتها. ووقف العالم في التطبيق من وراء العرب ضد غايات حماس وآمالها. ولم تحقق حماس في غزة غير الفوضى، ومزيد من الجوع، والتشرد، والبطالة، والنقمة من الشعب الفلسطيني في غزة.

صحيح أن "حماس" وخطابها السياسي/الديني ليسا هما السبب الوحيد في كل ما جرى في غزة. ولكن هناك في العالم العربي والغرب منطقاً عاماً يكاد يكون واحداً، وهو انضواء العالم تحت نظام واحد بعد الانفجار المعلوماتي وانتشار العولمة. ولعل هذا ما اسقط الاتحاد السوفيتي ودول الكتلة الشرقية، حين أرادت أن تبتدع في العالم نظاماً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً جديداً مخالفاً للنظام العالمي الرأسمالي الذي يتبنى الديمقراطية والعلمانية والعولمة والسوق الحرة ويأخذ بالحداثة من جوانبها كافة بل إنه يعيش اليوم عصر "ما بعد الحداثة" .

الإخوان والإسلام السياسي

ومن المعروف أن الإخوان المسلمين عندما نشأوا، كانوا جماعة اجتماعية وليست سياسية. وقد تحولوا إلى السياسة فعلياً في الأربعينيات، عندما أراد الشيخ حسن البنا أن يرشّح نفسه في الانتخابات التشريعية المصرية عام ١٩٤٢، ولكنه عدل عن ذلك نزولاً عند رغبة مصطفى النحاس باشا في ذلك الوقت، مقابل صفقة سياسية خاصة بين حزب "الوفد" وبين الإخوان المسلمين. ومنذ ذلك الوقت أصبح الإخوان المسلمون يلعبون في الملاعب السياسية، فقاموا في ١٩٤٨ بقتل النقراشي باشا رئيس الوزراء ووزير الداخلية آنذاك، جزاء ما قام به من اعتقال لزعماء الإخوان البارزين، بعد قيام الإخوان بعدة عمليات إرهابية في أنحاء مختلفة من مصر، وإغلاق مكاتبهم ومصادرة الكثير من وثائقهم وأموالهم. وقد كلفوا عبد المجيد حسن عضو الجماعة بارتداء زي ضباط الشرطة والوقوف على باب المصعد واغتيال النقراشي باشا. وقد تعلّم الإرهابيون بعد ذلك هذه الخطط وراحوا اليوم ينفذونها في أماكن مختلفة من العراق وأفغانستان ويفخخون السيارات، أو يلبسون الأحزمة الناسفة. ثم تم اغتيال الشيخ حسن البنا في العام الذي يليه ١٩٤٩، وتتابع مسلسل الاغتيال السياسي في مصر وخارجها.

الإخوان المسلمون وغصاب الخلافة

في ظني أن الملك فؤاد (١٨٦٨-١٩٣٦) ملك مصر (١٩١٧-١٩٣٦)، كان وراء نهوض وتعاظم قوة جماعة الإخوان المسلمين، التي تأسست عام ١٩٢٨، وكان يطمح في أن يصبح "خليفة المسلمين" بعد انهيار وإلغاء الخلافة الإسلامية في اسطنبول عام ١٩٢٤، ومن هنا، أطلق الإخوان على أنفسهم "جماعة الإخوان المسلمين"، في ظروف لم يكن فيها المسلمون في مصر مظلومين أو معزولين، لكي يقوموا بتأليف حزب إسلامي يُنصفهم ويُنهي عزلتهم ويرد لهم حقوقهم. بل إن المسلمين والأقباط كانوا يعيشون في وئام وائتلاف. وكانت "وحدة الهلال مع الصليب" وحدة مصرية حقيقية على أرض الواقع، وليست مجرد شعارات تُطلق. وكان حزب "الوفد" وهو حزب الأغلبية العلماني، يضم قياديين من الأقباط كمكرم عبيد وغيره. ولكن رغبة الملك فؤاد في إيجاد حزب ديني إسلامي كالإخوان المسلمين، كانت لكي يحققوا هدفه، في أن يصبح "خليفة المسلمين"، ولكي يقفوا كذلك في وجه حزب "الوفد" المتمسك بالعلمانية والديمقراطية والدستور والتعددية الذي بقدر ما كان الملك فؤاد يحب زعيمه (سعد زغلول) بقدر ما كان يخشى منه، ولا يركن إليه. وقد ساند بعض شيوخ الأزهر رغبة الملك فؤاد بالخلافة الإسلامية. وفيما بعد، ساند الأزهر وعلى رأسه الشيخ محمد مصطفى المراغي الملك فاروق كذلك في رغبته بأن يصبح خليفة للمسلمين. وأصدر شيخ الأزهر فتوى للملك فاروق، يثبت فيها بأن الملك فاروق من الأشراف، وبأنه من آل البيت، وأن من حقه أن يكون خليفة المسلمين. ووقتها أطلق الملك فاروق لحيته (وكذلك فعل الملك حسين بن طلال في ١٩٩١ وأطلق لحيته وأطلق على نفسه "الشريف" بدعم من إخوان الأردن، ثم تراجع). ولازم الملك فاروق الشيخ المراغي كما تقول الباحثة لطيفه سالم في كتابها (فاروق وسقوط الملكية). ولكن قيام الشيخ علي عبد الرازق بنشر كتابه العاصفة (الإسلام وأصول الحكم، ١٩٢٥) ونفيه وجود دولة دينية في الإسلام وأن الإسلام دين وليس سياسة، هو الذي وقف عقبة أمام الملك فؤاد، ولولا ذلك لجرت الأمور مجرى آخر.

وظل الإخوان المسلمون في خطابهم السياسي متمسكين بالخلافة الإسلامية إلى هذا اليوم يعرضونها كبضاعة بائرة على كثير من الحكام العرب ولا يجدون لها مشترياً.

"الإخوان" هم اللاعب السياسي الرئيس

جماعة الإخوان المسلمين، أصبحت الآن بعد هزيمة الأحزاب اليسارية العربية الأخرى، وتفرق شملها في العالم العربي، هي- و من خرج من عباءتها - اللاعب السياسي الرئيس على الساحة العربية السياسية في معظم الدول العربية. فجماعة الإخوان المسلمين بدأت عام ١٩٢٨ دينية للهدى والنشاط الاجتماعي، وانتهت سياسية تطلب كرسي الحكم. لذا، فقد قال لهم مرشدهم حسن الهضيبي محذراً: "كونوا هداة لا قضاة". وقد لعبت هذه الحركة أكثر الأدوار السياسية أهمية في التاريخ السياسي العربي. فهي التي حاولت إعادة الخلافة الإسلامية متمثلة بالملك فؤاد والملك فاروق بعد سقوطها في تركيا عام ١٩٢٤، وقرأت القرآن الكريم ورسالة الإسلام قراءة حرفية متعسفة ومتشددة على عكس القراءة العقلانية أو التاريخية. وجاءت بـ "إسلام الإخوان"، وهو "إسلام" حربي وعدمي النزعة، كتبه سيد قطب من وسط زنازين التعذيب، وكذلك صالح العشماوي وغيرهما في الخمسينيات والستينيات. وهي جماعة، كانت تبعث على القشعريرة والرعب في نفوس الناس في أوروبا والغرب كله. وكان الغربي غير المسلم، يرى في التسمية ذاتها تهديداً له، كما قال الباحث الفرنسي كزافييه تيرنسيان في كتابه عن الإخوان (Les Fréres Musulmans الإخوان المسلمون، باريس، ٢٠٠٥). وهي التي شاركت في مقاومة الاحتلال البريطاني لمصر، وشاركت في الحرب العربية -الإسرائيلية في فلسطين ١٩٤٨، وهي التي ساهمت فكرياً في قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وكانت اللاعب السياسي الوحيد على الساحة الأردنية طوال ثلاثين عاماً (١٩٥٧-١٩٨٧). وهي التي وقفت في وجه المد الناصري (١٩٥٦-١٩٧٠). ووقفت إلى جانب السادات في رحلة السلام. وهي التي كانت سبباً في مقتل أكثر من عشرين ألفاً من الأبرياء في مدينة حماة السورية ١٩٨٢، ووقفت إلى جانب صدام حسين في غزوه الكويت. وهي التي ضمت تحت جناحيها معظم الجماعات السلفية الدينية "الجهادية"، وتزعمت الفكر السلفي في تكفير الآخر، خاصة في السعودية والخليج. فأصبحت بلاءً بعد أن كانت عزاءً، كما وصفها وزير الداخلية السعودي (جريدة "السياسة" ٩/١٣/ ٢٠٠٣). وهي التي فرّقت بين المواطن المسلم والمواطن المسيحي في مصر. ودعا مرشدها العام السابق مصطفى مشهور إلى طرد المسيحيين من الجيش المصري، واعتبار الأقباط "أهل ذمة"، ودب الرعب في قلوب زعماء الأقباط، مما دفعهم إلى مقاومة أي تقارب بين الإخوان المسلمين والإدارة الأمريكية. وحاولت جماعة الإخوان المسلمين الاستيلاء على السلطة من خلال محاولات الاغتيال في مصر وسوريا. وقامت بتجهيل العصر الحديث (سيد قطب : جاهلية القرن العشرين). وأنكرت التعددية والديمقراطية. وقالت بالحزب الواحد (حزب الله). وأنكرت الانتخابات وأخذت بالشورى. وهي تختار مرشدها العام (الزعيم) ليس بالانتخاب، وإنما بالاستفتاء. وتقف موقفاً معارضاً وقوياً من الانتخابات النيابية. وتنادي بالبيعة على سُنّة السلف الصالح من قبل أصحاب (الحل والعقد) من الفقهاء الذين ينوبون عن الأمة في البيعة، علماً بأن لا أحد أنابهم في ذلك. وما زال الإخوان حتى الآن في تنظيمهم الداخلي يأخذون بالبيعة، ولا يأخذون بالانتخاب. فالمرشد العام (يجب أن يكون مصرياً. والمرشدون دائماً من مصر، على غرار: الأئمة من قريش) الذي يحكم الملايين من الإخوان في أكثر من سبعين بلداً في العالم، يختاره بالبيعة ١٥ شخصاً فقط من مكتب الإرشاد بالقاهرة، وهم (أهل الحل والعقد)! وهذه هي الشورى التي ينادي بها الإخوان المسلمون، والتي لا يُستشار فيها أحد، والتي هي معلّمة كما يقول الشعراوي والغنوشي وغيرهما، وليست مُلزمة كالديمقراطية الغربية كما يقول خالد محمد خالد ومحمد الغزالي وجمال البنا وغيرهم. وما زالت بعض حركات الإخوان في العالم العربي تؤمن بالبيعة لا بالانتخابات. وآخرها كانت بيعة الإخوان المسلمين السودانيين لجعفر النميري في ١٩٨٩ التي وصفها الشيخ ياسين الإمام أحد قياديي الإخوان بأنها بيعة كـ "بيعة الرضوان"، وأنها تستعيد ذكرى السيرة العطرة، ومواقف الصحابة في" بيعة الرضوان" (محمد القندال: الإسلام والسياسة في السودان ، ص٢٢١).

الإخوان المعتدلون الآن

برغم هذا التاريخ السياسي الدموي لجماعة الإخوان المسلمين، إلا أنهم في السنوات الأخيرة اتجهوا إلى الاعتدال، بعدما شدد الغرب بكافة أجهزته الرقابة والعقاب للإرهابيين، وأيقنوا بأن الاعتدال هو الذي سوف يوصلهم إلى كراسي الحكم بالتعاون مع الغرب، وليس التطرف وأن مفاتيح القصور الرئاسية والملكية أصبحت في يد الغرب. فلا يعتقد أحدٌ في العالم العربي أنه يمكن الوصول إلى كرسي الحكم دون دعم ومساعدة من الغرب. واستعراض التاريخ العربي الحديث مفصلاً، يتبيّن لنا أن معظم أنظمة الحكم التي قامت في العالم العربي في القرن العشرين، كانت بالتفاهم والاتفاق والدعم الغربي، مرةً من بريطانيا، ومرةً من فرنسا، ومرةً من أمريكا.

من خلال هذا التاريخ الطويل الحافل لجماعة الإخوان المسلمين، ومن خلال هذا التأثير الكبير لهذه الحركة على الشارع العربي، ومن خلال الخطوات التي خطتها هذه الجماعة نحو البرجماتية السياسية، فكر بعض المثقفين الليبراليين ممن لهم صلات قوية بجماعة الإخوان المسلمين وبالإدارة الأمريكية كذلك، أن يجمعوا الخصمين على وسادة واحدة (ويا بخت من جمع رأسين بالحلال). وكان اللاعب الرئيس في هذا المشهد السياسي الأمريكي- الإخواني هو المفكر والناشط السياسي سعد الدين إبراهيم ، رئيس مركز ابن خلدون بالقاهرة، والباحث في "معهد وودرو ويلسون" بواشنطن، والمنفي الآن نفياً اختيارياً خارج وطنه، والذي قيل بأنه استطاع أن يجمع عصام العريان بمسؤولين أمريكيين. ثم كتب بعد ذلك مقالاً في جريدة "نيويورك تايمز" ونشرته كذلك "الهيرالد تريبيون انترناشونال" في ٢٠٠٥/٥/٣٠ يبشر به بهذه الخطوة، ويدعو إلى دعمها ونصرتها. وما زال يقنع الإدارة الأمريكية بضرورة التعاون مع الأحزاب الدينية الإسلامية التي هي أكثر الأحزاب شعبية وتنظيماً في الشارع العربي، أسوة بالأحزاب المسيحية في ألمانيا (حزب الاتحاد المسيحي الديمقراطي) و(الحزب الديمقراطي المسيحي) في سويسرا و (الحزب الديمقراطي المسيحي) في إيطاليا. وهي أحزاب علمانية صرفة، تأخذ من الدين روحه وبركاته فقط. علماً بأن هذه الأحزاب هي من نتاج الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة. وظهرت لاستغلال مشاعر المسيحيين في صراعاتها. وبعد انتهاء الحرب الباردة بدأت هذه الأحزاب بالزوال. فانتهى وجود "الحزب الديمقراطي المسيحي" في ايطاليا، الذي كان من بين أقوى الأحزاب السياسية الأوروبية. وتراجعت قوة بقية الأحزاب المسيحية في أوروبا.

لماذا دعوة الحوار مع الإخوان؟

إن حجة سعد الدين إبراهيم في إفساح المجال للحوار الأمريكي مع الإخوان المسلمين لكي يأخذ طريقه، تتركز في سببين رئيسين:

١- من الواضح أنه يجدر بالغربيين، انطلاقاً من المبدأ والبراغماتية، ألا يخافوا من فكرة السماح لأحزاب دينية بالاضطلاع بدور في الهيكليات السياسية التي تبرز في العالم العربي. وذلك أنه يجب أن يتمتّع الإسلاميون، بصفتهم مواطنين، بالحقوق الأساسية نفسها التي يتمتّع بها الآخرون. فإطلاق الدعوات لإحلال الديمقراطية في هذه البلدان، وإنكار حقوق مجموعات تريد التنافس بطريقة سلمية على المناصب المختلفة في الوقت نفسه، هو ضرب من ضروب الرياء.

٢- أنّ الإسلاميين منظّمون جيداً ويحظون بالشعبية. صحيح أنّ بعضهم أنشأ ذراعاً مسلّحاً داخل حركته، هدفها الظاهري مقاومة الاحتلال الأجنبي ("حزب الله" في لبنان، و "حماس" و "الجهاد الإسلامي" في فلسطين) أو مواجهة الأنظمة الاستبدادية، لكن في مختلف الحالات، هناك نواة إسلامية معتدلة، وأقلّ عنفاً. ومن شأن استبعاد الأحزاب الدينية من الاتجاه السياسي السائد أن يؤدي إلى هيمنة الفصائل المسلحة على حساب الوسط الأكثر اعتدالاً.

ظهور "الإخوان الجُدد" Neo-Bros

ولعل دعوة سعد الدين إبراهيم تلك، جاءت في الوقت المناسب. فقد حصل تطور مهم في الفترة الأخيرة في "الإسلام السياسي" الإخواني. وهذا ما يجعل بعض المراقبين يعتقدون بأنهم سوف يشهدون بروز أحزاب إسلامية ديمقراطية بكل معنى الكلمة -كما قال سعد الدين إبراهيم -على غرار الأحزاب المسيحية الديمقراطية في أوروبا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية. ومن هذه الأحزاب جماعة الإخوان المسلمين التي أخذت في الفترة الأخيرة تتبنى ما في البرجماتية السياسية من حداثة وليبرالية، بحيث غدا "الإسلام السياسي" بالنسبة لها عبارة عن قشرة طلاء ذهبية براقة لأغراض التسويق السياسي المحلي فقط، وإرضاء لغرائز الشارع العربي الدينية. في حين أنها قدمت نفسها للعالم الخارجي وللإدارة الأمريكية على وجه الخصوص كحزب حداثي ليبرالي، يؤمن بالتعددية السياسية، وينفي مطالبته بإقامة الخلافة الإسلامية أو "الدولة الدينية"، ويطالب بإقامة "الدولة المدنية"، ويريد الوصول إلى الحكم من خلال صناديق الاقتراع، ولا يضع قيوداً على حرية المرأة، وغير ذلك من الشعارات الليبرالية التي تنقل جماعة الإخوان المسلمين من خانة الأحزاب الدينية السلفية المنغلقة والظلامية، إلى خانة الأحزاب السياسية التقدمية والليبرالية. وهو ما نقرأه من خلال بيانات وتصريحات الجيل الجديد من القياديين الإخوانيين كعصام العريان، ومحمد السيد حبيب، وعبد المنعم أبو الفتوح وغيرهم. وهم الذين يمثلون تياراً سياسياً جديداً نُطلق عليه اليوم "الإخوان الجُدد Neo-Bros" الذين يحاورون الآن "المحافظين الجُدد Neo-Cons".

أنبياء وأولياء

فالح عبد الجبار
كاتب

الزائر للعراق ، قبل قرنين، كان يذهل لكثرة المراقد في قراه وبلداته ، واحياء مدنه. وتكاد قباب المراقد ان تكون غابة ممتدة من الجنوب الى الشمال . زوار العراق قبل هذين القرنين، رحالة وجوابين وسفراء وقناصل، وعلماء اثار ، تركوا ارثا وصفيا مذهلا لعالم يديره الاموات من وراء القبور .

واليوم بعد مضي قرنين على اول تقرير عن الاولياء (رحلة نيلز بور الدنيماركي)اخذت المدن تتبارى على انتاج الاولياء . هذه المرة اصحاب الكرامات ليسوا امواتا، ولا اجداثا تظللها القباب ، بل اناس من لحم ودم.

بالامس كان الوسيط (الولي)محايدا في كراماته.تعرض النذور على مرقده: لطخات الحناء على بابه، او اشرطة ملونة تعقد على شباك ضريحه ، او بضعة قروش ترمى قرب مقامه. كان ذلك هو السبيل الذي اختطه التدين الشعبي طلبا للعافية و قوة الجسد او الجاه، او المال، او البنين.

ولعل اكثر الزوار هم العواقر الخائفات ، او المرضى والمعوزون ، او المصابون بلوثة عقلية.

اختفت عشرات الالاف من قباب الاولياء على مر الزمن ، لكنها الان تعود لابشكل اجداث مكتشفة، او مراقد مبتناة حديثا، بل في اهاب شخوص احياء يدعون القداسة.

الاولياء الجدد ينسجون حول ذواتهم هالة من القدسية الفاقعة.

في العام الماضي(كانون الثاني ٢٠٠٧)فوجئنا بحركة جند السماء بزعامة شخص يدعى ضياء عبدا لزهرة الكرعاوي.

وفي هذه السنة(كانون الثاني ٢٠٠٨) طلعت فرقة اخرى باسم "الحركة المهداوية"او "انصار الامام المهدي" بزعامة اخر يدعى احمد اسماعيل كاطع.

في التقارير ان الاول يعتقد ان الامام المهدي (الغائب المنتظر في الفقه الشيعي) اقترن باخته. اما الثاني فقد اطلق على نفسه اسم اليماني، وهو حسب المنطوق الاعتقادي احد اعوان الامام المهدي الذين يرافقونه في ظهوره.

وثمة تقارير عن جماعات او فرق اخرى : الربانية والمولوية ، والسكتاوية، والسلوكية، يدعي اصحابها القداسة. فاحدهم اما امام ، او وكيل امام ، ان كان على قدر من الاحتراس والتواضع ، او هو صاحب الزمان ، ان لم يكن مخلوقا قدسيا قداسة من طراز خاص ، اودعه الخالق في حرز امين.

تنتمي هذه الحركات جميعا الى حقل التدين الشعبي، المنطلق الان من عقاله .

الدين الرسمي المؤسساتي يعنى بعلم الكلام والفقه، بل ان فقه المعاملات وفقه العبادات يطغيان على كل ماعدا ذلك. اما التدين الشعبي فينزع الى فاعلية الطقوس ، وطلب رضا المقدس عبر تقنيات الالم والحزن ، وهو رضا يرتبط بالحاجات اليومية ، عافية وثراء ، فهو تدين نفعي وعملي.

يحتل الفقهاء حقل الدين الرسمي ، راسمين له حدوده ، مبادىء مقيدة لكل منتم جديد الى هذا الحقل: الدرس والعلم والتحصيل (مبدأ الاعلمية) ويضاف الى ذلك بنية كاملة من المؤسسات :المدارس الدينية، وشبكات الوكلاء، ومدفوعات المقلدين.

اما التدين الشعبي ، الطقسي عموما ، فيديره الوجهاء المحليون ، بل يحتكرون ادارته وتنظيمه على مستوى الحارة، والبلدة، وبمعنى ما فان الاسر التي تحتكر تنظيم هذه الطقوس تتحول الى مايشبه المؤسسة الثابتة.

بين هذين القطبين لامكان لثالث ، حتى الثورة الايرانية التي كسر فيها الخميني احتكار كبار الفقهاء لقمة المؤسسة بالقضاء على مبدأ الاعلمية في الفقه، والوصول الى القمة عبر الانتخابات، اي بوسائل سياسية . هذا التحول فتح المجال امام صعود صغار رجال الدين عبر مسالك النشاط السياسي.واليوم تبرز اسماء كثيرة من هؤلاء ممن يغطون بظلالهم على كبار الفقهاء.

لكن حقل الفاعلية السياسية الجديدة امتلأ كما يبدو وتحول هو الاخر الى ميدان مؤسسات وزعامات راسخة و مغلقة.

الاولياء الجدد يمثلون كما اظن ، محاولة جديدة للتمرد على مؤسسات الدين الرسمي والدين الشعبي والدين السياسي ، وهي محاولة لايجاد موقع يتجاوزموانع هذه الميادين بما فيها من قيود وثوابت.

ويحوي التدين الشعبي على فرصة سانحة ، وبخاصة في جانبه الاعتقادي الطقوسي، وهو ماينكشف في عقيدة عودة ظهور الامام المهدي.

فهذه العقيدة تفيد ان الامام سيظهر لحظة تمتلىء الارض جورا.

ويلتمس بعض الحركات في هذه الثيمة مسوغا لارتكاب افعال تشيع الفوضى وتزيد الفساد ، للتعجيل بظهور الغائب.

كما تفيد بعض المرويات ان الامام الغائب سيظهر الارض من المفسدين ابتداءا بالفقهاء.وتنطوي هذه التصورات العقائدية على بذرة نفور من قيود الدين المؤسساتي ، المرتكزة على طهارة البدن وطهارة النفس ، كما تنطوي على ميل قوي للنفور من القيمين على هذه المؤسسة(فكرة ذبح الفقهاء). ولعل طلاب الفاعلية الجديدة ، الباحثين عن مسارب للصعود والارتقاء ، والتواقين الى تجاوز المحرمات الفقهية ، والكارهين لسلطة الاكليروس ، سيجدون في تنشيط فكرة عودة الامام الغائب اداتهم المناسبة.

ولم تكن مصادفة ان يعمد انصار اليماني الى اطلاق النار على المواكب الحسينية لاشاعة الفوضى باعتبارها نقطة الصفر لتسهيل العودة.كما لم تكن مصادفة ان يسعى الكرعاوي من قبله الى التخطيط للاعتداء على المراجع الدينية العليا في النجف وكربلاء.

كانت الفاعلية الفكرية السياسية في الماضي تتجه الى الانتاج الفكري الحديث ، وتتخذ من ابطال ارضيين مثالا اعلى (ماو ، غيفارا، لينين) اما اليوم فان انغلاق الفكر الاجتماعي على الثيمات المقدسة ، وطغيان الطابع الديني على كل وأي تحرك ، يدفع ثمن هيمنته على الفضاء الاجتماعي والسياسي .انه لايلغي الاعتراض قط ، ولكنه يلبسه قماشته نفسها، و يرتد عليه.

وامام التحول الكبير في مصائر الفكر الشيعي (انتصار الخميني ، صعود حزب الله، وانطلاق شيعة العراق) يرى البعض فيه انقلابا مقدسا ينبيء بمفاجآت وشيكة ، اقلها ظهور الامام في الحال . الواقع ان شهر رمضان الماضي كان شهر ترقب الظهور يوم الخامس عشر منه.

في خضم الانقلابات الفكرية والمجتمعية يندفع اصحاب المواهب ، والمرضى بداء العظمة ، سواء بسواء للاندراج في هذا التيار الجارف . ولعل العراق اكثر البدان العربية والاسلامية خصبا في انتاج مجانين العظمة.

حين عاد الخميني الى طهران ظافرا عام ١٩٧٩ ، لم تصدق الحشود ان سقوط الشاه كان من فعلها هي ، بل توهمته ثمرة قدسية الخميني نفسه.

وحين سئل ان كان هو الامام المهدي ، نفى ذلك ، مبتسما للاطراء . اما في العراق فان الائمة الجدد يعلنون قدسيتهم حتى قبل الانتصار على مفرزة شرطة!

يقول الدارسون ان الفقهاء والعلماء في كل الاديان دأبوا على تخليص المعتقدات من العناصر السحرية ، واستبدالها بعناصر عقلانية . لكن عليهم ان يضيفوا : ان عملية الاستبدال قد تنقلب او تنقطع.